التجديد الشعري في مدرسة المهجر الأمريكي

إيليا أبو ماضي

ولد إيليا أبو ماضي في قرية المحيدثة بلبنان سنة 1889، وفيها تلقى تعلّمه الأول، وترك المدرسة في سن الحادية عشرة وسافر إلى مصر واختار الاستقرار بالإسكندرية حيث سعى في طلب الرزق عن طريق بيع السجائر، مستغلا أوقات فراغه بالمطالعة والدراسة.

وكانت لإيليا أبي ماضي محاولات شعرية عديدة أولها ديوان (تذكار الماضي) سنة 1911، لكن الحياة بمصر لم ترْقَ إلى طموحه وشغفه المعيشي والأدبي، فهاجر ـ متأسيا بأدباء جيله ـ إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وهناك بدأت أبواب النجاح تتفتح أمامه شيئا فشيئا، حيث أشرف على تحرير (المجلة العربية) سنة 1916، ثم مجلة (مرآة الغرب) سنة 1918، فاكتسب تجربة كبيرة في فن التحرير الصحفي والأدبي، الشيء الذي دفعه لتأسيس مجلة (السمير) سنة 1929.

ذاع صيت الشاعر إيليا أبو ماضي بين أدباء المهجر، فتمكن في سنة 1920 من المشاركة في تأسيس الرابطة القلمية التي تضم أبرز أدباء المهجر، برئاسة الشاعر جبران خليل جبران، وضمت كلا من ميخائيل نعيمة ونسيبة عريضة ورشيد أيوب فكانت الانطلاقة الحقيقة لارتقاء الشاعر أبي ماضي سلم التميّز والنجاح والشهرة إلى أن توفي سنة 1957.

خلّف الشاعر إيليا أبو ماضي دواوين عدة، نشر منها:

–تذكار الماضي سنة 1911، ديوان إيليا أبو ماضي سنة 1918، الجداول سنة 1927، الخمائل سنة 1946، تبر وتراب سنة 1960.

نهج الشاعر إيليا أبو ماضي في بداياته أسلوب القدماء، فكان وفيا لنمط القصيدة العمودية وموضوعاتها، ليتطور بشكل قوي بعد أن انتقل إلى بلاد المهجر وانخرط في الرابطة القلمية،

حيث أضفى على القصيدة نفسا تجديديا خالصا من روح الشاعر الرومنطيقية، وفكره الرومنطيقي الذي يقوم على العناية بالنفس الإنسانية، ويلامس جوانبها الروحية والعاطفية.

وهو في فلسفته متفائل وواقعي لأبعد حد، عكْس صاحبه جبران الذي سرح بخياله وعالمه الجمالي الخاص، هذه الفلسفة القائمة على التفاؤل والتشبث بالحياة يجسدها الشاعر إيليا أبو ماضي في خواطر وأشعار بهيجة، وظف فيها الخيال الإبداعي الجمالي في رسم الحياة الاجتماعية الواقعية بشكل يدعو للإعجاب والتأمل.

الخصائص الفنية في شعره:

تكاد الخصائص الفنية في شعر أبي ماضي تكون ممثلة للخصائص الفنية العامة لدى أدباء مدرسة الرابطة القلمية ذات الطابع الرومنسي، ولهذا سنضطر في بعض تلك الخصائص إلى التمثيل ببعض أشعار أدباء الرابطة الآخرين حينما تكون أوضح وأبرز في بيان الخاصية، أما أشهر هذه الخصائص فهي كما يلي:

1-الثورة على قواعد الشعر التقليدى:

لقد ثار الرومنسيون على القواعد الفنية الكلاسيكية بصفة عامة، ومنها ما ظهر في الشعر الرومنسي العربي من النزوع إلى الخروج على وحدة البيت التي كانت تميز البناء الفني للقصيدة العربية القديمة، ودعوا بدلا من ذلك إلى الوحدة العضوية للبناء الفني كما رأيناها عند الشاعر إبراهيم ناجي، وقد جسدها الشاعر إيليا أبو ماضي في قصائد عدة منها (قصيدة الطين) و(التينة الحمقاء)، وثاروا أيضا على شعر المناسبات الذي يجعل الشاعر رهين أحداث لا تعبر عن ذاته وروحه بقدر ما تعبر عن ذوات الآخرين المحيطين به.

2-الدعوة إلى التحرر من جميع القيود، وبساطة التعبير:

بحكم الطابع الرومنسي لمدرسة الرابطة القلمية فقد تأثر شعراؤها بالدعوة إلى التحرر من القيود الفنية، والابتعاد عن كل ما يحدّ من انطلاق الشاعر نحو الإبداع حسب ما تمليه عليه ملكاته من دون شرط أو قيد، كما اتجه الشعراء إلى التعبير بواسطة التراكيب البسيطة، مثلما في قول إيليا أبي ماضي:

قد كان لي حـلمٌ جميـــل مـــونـق	فأضـــعـتـــه لّـما أضعت نعاسي
فكّرت في ما نحـــن فيـــه كأمّـــــة	وضربت أخماسي إلى أسداسي
فرجعت أخْيَـــبَ ما يكـــون مـؤمّـل	راج وأخسـرَ ما يكـون الخـاسي
نرجو الخلاصَ بغاشم من غاشم	لا يـنـقـــذ النـــخّـاس من نخّـــاس
ونقيس مـــا بيـــن الثّـــريـا والثرى	وأمـــورنـا تـجـــري بـغـــيـر قياس

فأنت تلاحظ قوله: ((فكَّرْتُ فيما نحنُ فيه)) فهي جملة بسيطة التعبير، يمكن أن تقال في أي موقف بين شخصين، كأنها ليست من عالم الإبداع الشعري في شيء.

أما (التحرر من القيود) عند أدباء مدرسة المهجر الأمريكي الشمالي فيتوزع على عدة فروع منها التحرر من القيود الفنية الموروثة عن الشعر العربي القديم ممثلة في قواعد القصيدة العمودية الخليلية كما سبق بيانه في العنصر الأول، ومنها التحرر من بعض قواعد اللغة، فهم يقدمون التراكيب المستعملة وإن كانت خاطئة على التراكيب الصحيحة المهجورة، ومن ذلك مثلا قول جبران خليل جبران في قصيدة (أعطني الناي و غنِّ): ((هل تحمَّمْتَ بِعِطْرٍ)) والصحيح في توظيف هذا الفعل أن يقول (استحْمَمْتَ) ولكنه اختار (تحمَّمْتَ) لأنه مستعمل.

3-البوح بالآلام والحنين الى الأوطان:

من الطبيعي جدا أن تعترض المغتربَ عن وطنه مشكلاتٌ عدة تتعلق بالشعور بالاختلاف عن معظم أفراد المجتمع الغريب الذي وجد نفسه فيه، فهي غربة اجتماعية أولا بالإضافة إلى غربة البعد عن الوطن والأهل والأقارب، مما يجعله يشعر بالوحدة ويطغى عليه الهم والحزن وقد عبر الشاعر إيليا أبو ماضي عن ذلك بقوله:

هَـــمٌّ أَلَـــمَّ بِـــهِ مَعَ الظَـلـماءِ فَنَأى بِمُقـلَتِـهِ عَنِ الإِغـفـاءِ

نَفسٌ أَقامَ الحُـــزنُ بَينَ ضُلُـوعِـهِ وَالحُزنُ نارٌ غَيرَ ذاتِ ضِياءِ

يَرعى نُجومَ اللَيلِ لَيسَ بِهِ هَـوى وَيَـخـالُـهُ كَـلِـفـاً بِهِنَّ الرائي

في قَـلـبِـــهِ نـارُ الخَـلـيـلِ وَإِنَّما في وَجنَتَيـــهِ أَدمُـــعُ الخَنساءِ

قَد عَضَّـهُ اليَأسُ الشَـديـدُ بِـنـابِهِ في نَفسِهِ وَالجوعُ في الأَحشاءِ

يَبكي بُكـــاءَ الطِـفـلِ فارَقَ أُمَّـهُ ما حـيلَةُ المَـحزونِ غَيرُ بُكاءِ

فَأَقـامَ جِـلسَ الـدارِ وَهـوَ كَـأَنَّــهُ لِخُــلُّوِ تِلــكَ الدارِ في بَيــداءِ

ويقترن شعر الحزن والألم بشعر الحنين إلى الوطن، حينما تستبد بالشاعر مشاعر الاغتراب وتدور في مخيلته المقارنات بين واقع غربته المؤلم وواقع وطنه البعيد المأمول الذي لا يجد عنه بديلا:

نغشى بلادَ الناس في طلب العلا وبــلادنـا متـروكــةٌ للنـاس

ونكاد نفترشُ الـثـرى و بأرضنا للأجـنــبــيِّ مـوائدٌ وكراسي

وطـني أَحَـبُّ إليَّ مِنْ كل الـدُّنَى وخيرُ أناس في البرية ناسي

4-الهروب الي الطبيعة:

على الرغم من الطبيعة الاجتماعية للإنسان إلا أنه يشعر بالضجر والسأم إذا كثرت عليه الضغوط الاجتماعية أو الاقتصادية، وتختلف أسباب الهروب إلى الطبيعة في بلاد الغرب عنها في البلاد العربية، لكن أغلب الشعراء المعبّرين عن هذه الخاصية يكتفون بوصف ما يجدونه من أحاسيس جميلة في الطبيعة، كما في قصيدة جبران خليل جبران (أعطني الناي وغَنِّ):

أعـطـنــي النـايَ وغَـنِّ فالغِنَا ســر الوجودْ

و أنيـــن النـاي يـبـقـى بعد أن يفنى الوجود

هل اتخذت الغاب مثلي منـزلا دون القصورْ

فـتــتـبـعـت السـواقــي و تسلَّقت الصخور

هل تـحَـمَّـمْتَ بـعِـطـر و تـنـشـفــت بـنـور

و شــربـت الفجر خمرًا في كؤوس من أثير

هل جلسْتَ العصرَ مثلي بيـن جـفنـاتِ العنـبْ

و العنــاقـيـــد تـدَلَّـتْ كـثـريـات الـذهـــب

هـل فـرشتَ العشب ليلاً و تـلـحـفتَ الفضـا

زاهـداً في مــا سيــأتي ناسيـًا ما قد مضى

أعطـنـــي الـنـاي و غـنِّ و انـــس داء و دواءْ

إنـمـــا الـنـاس سـطـور كُتِبَتْ لـكـن بـمـاء

5-غلبة البعد الانساني :

في المجتمع الأمريكي يجد الشاعر إيليا أبو ماضي نفسه ضمن مزيج من الأعراق الكثيرة بين الأصلية والوافدة، تلتقي فيها كثير من الأديان واللغات والتقاليد والطبائع، ويستوجب على الفرد حد أدنى من التنازلات تضمن له الاندماج في هذا الخضم المتنوع، لكن الأخلاق الإنسانية العامة تبقي ضرورية عند كل فئات المجتمع، كما أن سوء الخلق منبوذ عندهم جميعا، وفي ذلك يقول أبو ماضي:

لِيَ صاحِبٌ دَخَلَ الغُرورُ فُـؤادَهُ إِنَّ الغُرورَ أُخَيَّ مِن أَعدائي

أَسدَيتُـهُ نُـصحي فَـزادَ تَـمادِياً في غَيِّـهِ وَاِزدادَ فيـهِ بَـلائي

أَمسى يُسيءُ بِيَ الظُنونَ وَلَم تَسُؤ لَولا الغُرورُ ظُنونُـهُ بِـوَلائي

قَد كُنتُ أَرجو أَن يُـقيمَ عَلى الوَلا أَبَداً وَلَـكِن خابَ فيـهِ رَجائي

أَهوى اللِقاءَ بِهِ وَيَـهوى ضِـدَّهُ فَكَـأَنَّمـا المَوتُ الـزُؤامُ لِقائي

إِنّي لَأَصحَـبَـهُ عَـلى عِـلّاتِهِ وَالبَدرُ مِن قِدَمٍ أَخو الظَـلماءِ

يا صاحِ إِنَّ الكِـبـرَ خُـلْقٌ سَيِّ هَيهاتِ يوجَدُ في سِوى الجُهَلاءِ

وَالعُـجـبُ داءٌ لا يُـنالُ دَواؤُهُ حَـتّى يَـنـالَ الخُـلـدَ في الدُنياءِ

فَاِخفِض جَناحَكَ لِلأَنامِ تَفُـز بِهِم إِنَّ الـتَـواضُـعَ شيمَـةَ الحُـكَماءِ

لَو أُعجِبَ القَـمَرُ المُنيرُ بِنَفسِهِ لَرَأَيـتَـهُ يَـهـوي إِلى الغَبـراءِ

6-استخدام الرمز:

تمتزج خاصية استخدام الرمز مع خاصية الهروب إلى الطبيعة، فقد اختار شعراء مدرسة الرابطة القلمية معظم رموزهم من الطبيعة، ليجعلوا من بعض عناصرها معادلا موضوعيا للإنسان يشكون إليه همومهم ويحاورونه ويتخذون منه موقفا يعالجون من خلاله مشكلة فكرية أو أخلاقية، حينما يتم تشخيص العنصر الطبيعي فيغدو ذاتا تحيا

وتتحرك وتشعر وتسعد وتشقى ...، فيمتلئ النص بالاستعارات المكنية، كما في قصيدة (التينة الحمقاء) لإيليا أبي ماضي:

وَ تـــيـنَـــةٍ غَضَّةِ الأَفـنـانِ بـاسِـقَـــةٍ قالَت لِأَترابِـها وَالصَـيـفُ يَحـتَـضِرُ
بِئسَ القَضاءُ الَّذي في الأَرضِ أَوجَدَني عِندي الجَمال وَغَيري عِندَهُ النَظَـرُ
لَأَحـبِسَـــنَّ عَلـى نَـفسـي عَـوارِفَها فَلا يَبـيـنُ لَـــهـــا في غَيـرِها أَثَرُ
كَم ذا أُكَلِّـفُ نَـفـسي فَـوقَ طـاقَتِها وَلَيسَ لي بَـل لِغَيـري الفَـيء وَالثَمَرُ
لِذي الجَـنـــاح وَذي الأَظفـارِ بي وَطَرٌ وَلَيسَ في العَيشِ لي فيما أَرى وَطَرُ
إِنّي مُفَصِـلَةٌ ظِـلّـــي عَـلى جَسَدي فَلا يَكونُ بِهِ طـــول وَلا قِـصَـــرُ
وَلَسـتُ مُـــثـمِـرَةً إِلّا عَـلـــى ثِـقَةٍ أَن لَـــيسَ يَطـرُقُني طَير وَلا بَشَرُ
عادَ الرَبيـــعُ إِلـى الـدُنيـــا بِمَـوكِبِهِ فَازَّيَنَت وَاكتَسَت بِالسُندُس الشَجَرُ
وَظَلَّـــتِ التيـنَـةُ الحَـمقـاءُ عـارِيَةً كَأَنَّـهـا وَتَـدٌ في الأَرضِ أَو حَـجَرُ
وَلَم يُطِق صاحِبُ البُسـتـانِ رُؤيَـتَـها فَاجتَـــثَّـــها فَهَوَت في النارِ تَستَعِرُ
مَـن لَيـسَ يَسخو بِما تَسخو الحَيـاةُ بِهِ فَإِنَّهُ أَحمَـقٌ بِالحِرصِ يَـنـتَـــجِـــرُ

وعلى العموم فإن مظاهر التجديد الشعري لدى أدباء المهجر الأمريكي كانت مصدرا مهمًّا للتجديد الشعري في البلاد العربية من خلال مدرستي الديوان وأبولو، على الرغم من أن خروج شعراء مدرسة المهجر الأمريكي على قواعد الشعر القديم لم يظهر جليا في تحطيم قواعد الوزن الموروث عن الشعر القديم لأن معظم شعراء الرابطة كانوا ملتزمين بتلك القواعد الوزنية، بخلاف قواعد القافية ووحدة البيت فقد استطاعوا التحرر منهما.

انتهى